التمثلات الفنية لصورة الثورة في الخطاب الروائي الجزائري روايات الطاهر وطار أنموذجا

أ. النعاس سعيداني
جامعة سيدي بلعباس

الملخص:
إن الثورة شكلت الشاغل الذي يسكن الرواية ويؤثث الفضاء الروائي ، عبر فعل التذكر ونزف الذاكرة فالزمن سلطان الحكي وسيده ما والنص الروائي إلا نتاج جمالي لزمن متحقق واقعيا ، تتحدد ضمن إطار معرفي رؤيوي، أي أن الروائي في بناء الخطاب الروائي عند الطاهر وطار، يكتب التاريخ ضمن سياق جمالي انطلاقا من رؤيته للتاريخ تخيليا أو تأويليا ليس دفاعا عن الماضي أو تشبثا به حد التقديس أو حتى سخطا عليه ،إنما على كتابة التاريخ روائيا أن تكون واعية بتشكيل التاريخ واقعيا وتشكيل الواقع تاريخيا استجابة لجدل علاقة الحضور والغياب بين الأنا والآخر.

إن الخطاب الروائي عند الطاهر وطار الجزائري المكتوب بالعربية " وليد تحولات الواقع الجزائري زمن الاستقلال منه يستمد أسئلة متنه الحكائي وبسببه يبحث عن الأشكال والأبنية الفنية القادرة على استيعاب إشكالياته المستجدة وصياغة المواقف الفكرية والإيديولوجية إزاءها .

نقصد بالثورة الثورة التحريرية العظيمة للجزائر فهي التي صنعت الجزائر المعاصرة . ومن هنا جاءت هذه المقاربة لتسهم في إظهار جزء من ملامح الثورة في النص الروائي الجزائري، نظرا لكثرة أحداث الثورة فإن هذه المقاربة ستتطرق لبعض مشاهدها في بعض النصوص الروائية مخصصة رواية الشمعة والدهاليز.

ما المقصود بالثورة و ما المقصود بالأدب الثوري ؟ وهل هناك تلازم بينهما ؟ الثورة هي حق يمارسه كل شعب من الشعوب ، لرفع الظلم عنه وتغيير الوضع السائد ، إلى وضع جديد يسمح له بممارسة حريته كاملة غير منقوصة . ولذلك فالثورة تهدف إلى تحرير الشعب من كل شكل من أشكال الهيمنة والاستعباد والسيطرة ومصادرة الحريات . وبما أن (الثورة في حقيقتها (هي) حدث خارق للمألوف ، لذلك فإنها تغير كل شيء حتى المستحيل يتحقق لأن مجرى التاريخ يغير وكل شيء يصبح قابلا للتغيير والتلوين .)[1]

فإن الأدب الثوري هو الأدب الذي يعبر عن الفعل الثوري ، فهو صوت يصدر عن ذات تنشد الحرية والانعتاق ، وبذلك يلتقي مع الثورة . وبعبارة أوضح فالأدب الثوري ، هو الأدب الذي يمجد أفعال الثورة ويشيد بمنجزاتها وبكل تغيير تحدثه. ومن هنا فالعلاقة بين الأدب والثورة علاقة تأثير فالأدب يدعو إلى الثورة والتغيير والثورة تغير من مفاهيم الأدب وشخصياته ورؤاه .)[2] وإذا كانت الثورة فعل متجدد ومتسارع ، فإنه يصعب رصدها في عمل فني ، لذلك يحتاج العمل الأدبي الذي يرصد أحداث ثورة ، إلى عبقرية فنية قادرة على متابعة الأحداث بعقلية ملهمة وإحساس فني لا تفوته جزئيات الحدث .

وعلى كل فلكل ثورة أدبها الذي يعبر عنها ويشيد ببطولات رجالاتها وصمودهم وتحديهم لعدوهم . وليس هناك ثورة بدون أدباء يشيدون بها وينشرون أفكارها . فالثورة تفتح أفق الأديب على الواقع الذي يعيشه ، وتوفر له موضوعات الجديدة تحفزه على القول

والتعبير عن ما يجول في نفسه ، بفعلها الثوري المتجدد.

الثورة الجزائرية والأدب :

المعروف عن الثورة الجزائرية أنها ثورة جاءت لتحرير الإنسان من كل أشكال الهيمنة والاستعباد والقهر . ولذلك ارتبط بها الأديب الجزائري ، من بداية انطلاقها ، لأنها تعبر عن طمح شعبه ، فالأديب الجزائري كان وثيق الصلة بشعبه منذ أن وطئت أقدام المستعمر الفرنسي أرض الوطن يتحسس همومه ومشاكله ومقاومته وصموده . (لقد بذل الاستعمار الفرنسي كل ما في وسعه من أجل القضاء النهائي على الكيان الجزائري . وإيقاف لهيب المقاومة المسلحة والانتفاضات الشعبية التي عرفتها البلاد ، منذ أن وطأت أقدام الغزاة الفرنسيين أرض الجزائر)[3] والذي يطلع على الأدب الجزائري يجد أن الأديب الجزائري قد مهد الطريق للثورة من خلال مواقفه الشجاعة ، من الاستعمار الفرنسي ومخططاته الرامية إلى استعباد الشعب الجزائري ومصادرة حريته . وبفعله ذلك أحيا في نفوس الجزائريين البطولة وروح التضحية و حب الوطن والتضحية من أجله .

وعندما اندلعت ثورة نوفمبر 1954 احتاجت الثورة إلى صوت قوي يحمس النفوس ، وينشر أفكارها بين أفراد المجتمع ، فلم تجد لذلك إلا في صوت الأديب ، وخاصة الشعراء لأن الشعر يناسب الثورات . فكان الأديب أول من لب النداء و في طليعة المجاهدين . يقوم بتعبئة النفوس وشحنها بقيم الثورة والجهاد . والمؤكد أن الثورة لا تستغني عن الأدب ، وأن التلازم حاصل بينهما ، فهو يرافقها في كل أطوارها ومراحل تقدمها ، مخلدا مآثرها وراسما لصورتها المشرقة في الأذهان . فالثورة الجزائرية (أفرزت أدبها بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر بكل ما يحمل هذا الأدب في رحمه من تناقضات هي نفسها التناقضات التي صاحبت كل فعل ثوري .)[4]

الرواية الجزائرية وأحداث الثورة :

إذا كان الشعر قد رافق ثورة التحرير وسجل بطولات المجاهدين ، فإن الرواية الجزائرية ، وإن كان ظهورها متأخرا - أي سنة 1970 ولهذا التاريخ أهميته في حياة المجتمع الجزائري ، فهو تاريخ يصادف نشوة الانتصار على الآخر المستعمر – فإنها قد خصصت حيزا كبيرا للثورة وأحداثها ، وبطولات المجاهدين ، وجرائم جيش الاستعمار الفرنسي . لذا جاءت الروايات التي كتبت بعد سنة 1970 تحمل هم الإنسان الجزائري أيام مقاومته للاستدمار الفرنسي ، وتشيد ببطولاته وأفعاله الثورية والإنسانية .و من ذلك اكتسبت أهميتها لأنها تعالج قضايا هامة وجوهرية ألا وهي قضية الكفاح المسلح من أجل الحرية والاستقلال . وهو عمل يدخل في دائرة ما يسمى بالتوثيق الفني للثورة .

والذي يطلع على الرواية الجزائرية يلاحظ بأن هناك قضايا كثيرة تناولتها مجموعة من الكتاب الجزائريين في أعمالهم السردية المتنوعة ، ومن وجهات نظر مختلفة . وإن كان الكل ركز على الجانب البطولي للشعب الجزائري إلى درجة المبالغة في ذلك .والقصد من وراء ذلك كله إظهار قوة الشعب الجزائري وتماسكه ، وبأنه قادر على تحقيق ما يريد دون خوف من طغيان الآخر وجبروته وقوته . فقد اكتسبت ثورة التحرير بأحداثها المتلاحقة (صفة المرجعية الأساسية في بنية

الحدث الروائي وفضاءاته المتداخلة)[5] وهي حقيقة تؤكدها النصوص الروائية الجزائرية التي تناولت الثورة .

والملاحظ أن روايات مرحلة التأسيس كانت شديدة الارتباط بفترة الثورة ، حيث ركزت على تسجيل بطولات الأمة الجزائرية ومآثرها من أجل نقلها للأجيال اللاحقة . وقد كان الهدف من وراء ذلك تعميق الوعي بالهوية الوطنية ، وهو عمل يظهر مدى فهم الروائي الجزائري لدور الأدب الثوري في صقل الشخصية الوطنية ، فالفكرة القابعة في لا وعي النص هي النضال الثوري . فروايات تلك المرحلة وإن كانت خطابات تخيلية فإنها تروم تأسيس علاقة مع التاريخ دون أن تكون تاريخا ، وإن كانت تحمل ومضات منه . فهي تحيل على زمن قد مضى تتجلى فيه أحداث ثورة الشعب الجزائري ضد المستعمر الفرنسي .

ومن هنا يمكننا القول بأنه كلما ارتبط النص الأدبي بقيم نبيلة تخدم الإنسانية ، كلما حفر في مجرى التاريخ لوحة للدلالة على أن محمولاته لا تزال حية . لأن ذلك الفعل يبعد عنه الموت و الاندثار ، فلا يتجاوزه الزمن حتى وإن ضن البعض ذلك ، لأن خفاياه تبقى نابضة بالحياة تشهد على أن الحقيقة التي يحملها لا تزال حية تفرض حضورها على المتلقي . وبما أن الروايات التي تناولت الثورة هي روايات لها صلة بالتاريخ وبالهوية ، فلابد أن يجرنا ذلك إلى الحديث عن علاقة الرواية كتخييل فني بالتاريخ وأحداثه .

إشكالية الخطاب الروائي عند الطاهر وطار

عند الطاهر وطار والتاريخ :

تطرح علاقة الرواية بالتاريخ إشكالا معرفيا ، يصعب الجزم بتحديد الحد الفاصل بينهما ، وذلك لسبب بسيط ، يرجع إلى أن بعض الروايات تنقل أحداثا موثقة تاريخيا ، لا يختلف فيها اثنان .ولذلك يذهب الروائي العربي صنع الله إبراهيم إلى أن (المؤرخ الجيد هو الروائي و(...) أن الكاتب الروائي يستطيع أن يجعل روايته تاريخا)[6] وهذا الزعم من طرف روائي عربي كبير يتوافق مع قول ناقد وروائي عربي آخر القائل (إن الروائي العربي المعاصر قد أصبح . اليوم . هو (المؤرخ الحقيقي) لكثير من أحداث الأمة وقضاياها)[7]

فمثل هذا الزعم يثير لدى المتلقي جملة من التساؤلات من بينها :

. هل هناك علاقة بين التخييل الروائي والتاريخ ؟

. وهل يمكن اعتبار الأحداث التي يتناولها الروائي تاريخا ؟

بداية نقول أن انفتاح الخطاب الروائي عند الطاهر وطار على التاريخ لا يعني بأية حال من الأحوال أن الروائي قد أصبح مؤرخا . فالروائي قد (يعود إلى لحظة في الماضي لاستكشاف الحاضر وفهمه ، وهو قد يعود إليها كسند في مواجهة وطأة الحاضر .)[8] وعودته تلك لا تعني أنه أصبح مؤرخا بالمفهوم الدقيق للكلمة ، وذلك لسبب بسيط ، هو أن هشاشة التخييل الروائي لا يمكنها أن تستوعب صرامة العقل التاريخي . فالخطاب التاريخي هو خطاب موضوعي ، بينما الخطاب الروائي عند الطاهر وطار هو خطاب تخييلي . فكما هو معروف أن الروائي أثناء كتابة نصه الإبداعي يقوم بنقل الأحداث من سياقها الموضوعي إلى سياق آخر فني .و (استنادا إلى هذا ، فإن حقائق السرد ليست حقائق التاريخ ، فالمؤرخ قد يحذف أو يعدل

أو يتراجع عن حكم ما إذا تبين له أن هناك وثائق أو شهادات جديدة تثبت عكس ما سبق تدوينه ، أما العوالم التي يبنيها السرد فلا أحد يستطيع التنكر لها أو التشكيك فيها ، لأنها توجد خارج الزمن " الواقعي " وخارج منطق قوانينه)[9]

ومن هنا فصرامة التاريخ تحتم على الكاتب أن يتجاوز مواقف شخصياته بحيث يودعها معارف قد تكون أكبر منها . فـ(ليست الكتابة الروائية عند الروائيين عملية تتم دون خطورة ، وهاته الخطورة تأتي من جهة التاريخ ، الذي تتصرف فيه كمادة ، ومن جهة الرواية ذاتها، والتي تتخيل المادة التاريخية ، وما تصنعه الرواية هنا هو تعصير الماضي)[10] لذا فتواصل الروائي مع التاريخ لا يتم بسهولة نظرا لصرامة التاريخ وخطورته ، مما يدفع الكاتب إلى إدراك مقتضيات التاريخ التي تحتم عليه العمل دائما على إحياء الضمير الجمعي للأمة .

والمتتبع لروايات مرحلة التأسيس يلاحظ مدى تركيزها على الصراع بين الأنا الوطني والآخر المستعمر . وهي حقيقة تاريخية أوجدها ذلك الاحتقان العدائي للآخر الفرنسي ، بسبب تسلطه وهمجيته ، وعمله طيلة قرن ونيف على تحطيم الهوية الوطنية بكل الوسائل بما في ذلك استعمال العنف المسلح ، فالآخر المستعمر عمل من البداية على تجريد الأنا الوطني من رموز هويته . يقول ألفريد رامبو الذي كان وزيرا للتعليم عام 1897 (يجب أن نضمن السيطرة للغتنا ، وأن تدخل في أذهان المسلمين الفكرة التي نحملها نحن أنفسنا عن فرنسا ودورها في العالم ، وأن نحل محل الجهل والأفكار المسبقة المنغلقة ، المفاهيم المدققة للعلم الأوروبي)[11] بهذا الأسلوب القهري المتعالي يحاول الآخر المستعمر أن يمحو هوية الأنا الوطني من أجل نشر ثقافته ولغته ، و تكريس هويته . ولكن تلك الشراسة الاستعمارية كانت في المقابل عاملا مساعدا للأنا الوطني ليتحصن أكثر بهويته ويدافع عنها بكل ما يملك . (ففي المراحل التي يحتدم فيها الصراع لدرجة يغدو فيها كيان فئة أو وطن أو أمة معرضا للتهديد أو الاختراق يعبر خطاب الهوية عن ذات منجرحة ومتشبثة بثوابتها الجوهرية لكي تتفادى الاقتلاع والاحتواء .)[12] فالتصرفات الاستعمارية الظالمة كانت سببا في تفجير الطاقة الثورية لدى الأنا الوطني .

تجليات ثورة التحرير في الخطاب الروائي عند الطاهر وطار الجزائري :

الحديث عن الثورة معناه الحديث عن ماضي هذه الأمة ،وما تعرضت له من أحداث في مسارات تاريخها المعاصر ، وما قدمته من تضحيات جسام من أجل نيل حريتها . ومن هنا فتناول الرواية للثورة معناه الوقوف على بعض محطات تاريخ الأمة الجزائرية . ولكن المعروف عن الرواية الجزائرية أنها لم تعاصر الثورة كما عاصرها الشعر، ولهذا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : كيف تعاملت الرواية الجزائرية مع أحداث الثورة فنيا ؟

إذا كان الكل يعلم بأن الرواية الجزائرية قد ظهرت متأخرة أي بعد الاستقلال بسنوات ، فليعلم بأنها ولدت شديدة الارتباط بأحداثها ، فطيف الثورة لم يفارق الكثير من النصوص الروائية الجزائرية ، وإن اختلف كتابها في التعامل معها ، كل حسب الأيديولوجية التي يؤمن بها . فجل موضوعاتها كانت تدور حول أحداثها من أجل تشريح وضع المجتمع

الجزائري أيام الحكم الاستعماري ، وفي نفس الوقت إظهار بطولات الشعب في مقاومة للاستعمار الفرنسي ، والانتصار عليه وتكبيده خسائر في الأرواح والعتاد . (ولا شك أن اختيار الكتابة عن فترة الاستعمار يعتبر عملا مشروعا ومن حق أي مبدع روائي ، ولكن الذي يهم هو طبيعة الرؤية لهذه المرحلة التاريخية وطبيعة المواقف والرؤى التي يتخذها أو يتصورها كل روائي من القضايا الفكرية والاجتماعية لتلك الفترة .)[13]

كما أنه لا يمكننا أن ننسى من جهة أخرى ، أن التأسيس الفعلي للرواية الجزائرية قد صادف تغيرات اجتماعية وثقافية جذرية أفرزتها مرحلة ما بعد رحيل الاستعمار ، فترة ساد فيها التوجه الاشتراكي مما جعل النصوص الروائية التأسيسية الأولى تغرق في الهم الاجتماعي والصراعات الأيديولوجية التي عرفتها الثورة بين التيار الوطني المتمسك بالقيم العربية الإسلامية ، والتيار المتشبع بالفكر الماركسي . (لقد وجد الكاتب الجزائري نفسه بين فكي كماشة : صورة الماضي القريب وصدمات الواقع المتحول ، فكان يلتفت إلى الماضي ليستحضر حرب التحرير يسائلها طورا ويتلذذ بذكراها أطوارا ،وهو في ذلك يحن إلى ماض مجيد يستأنس به وقد يوظفه لنقد الواقع ، وقد يقحمه فيأتي امتدادا للخطاب السياسي الرسمي الذي جعل من التراث الوطني شعارا لتكريس الشرعية التاريخية والمحافظة على السلطة .)[14]

وإذا كانت نظرة الروائيين الجزائريين للثورة تختلف من كاتب إلى آخر ، فلا يعني ذلك أن منهم من يشكك في جهاد رجالاتها أو نزاهتهم ، أو يحاول تشويه انتصاراتها ، وإنما الكل يتفق على عظمتها و تمجيد بطولة رجالاتها . وذلك راجع لأن الواقع الاجتماعي في الجزائر بعد اندحار المستعمر الفرنسي ، كان يحتم على المبدع أن يلتفت إلى تلك الملحمة التي كتبها الشعب الجزائري بدماء أبنائه أثناء ثورة التحرير ، فكان حضور الثورة كثيفا في روايات التأسيس الأولى .

وإذا كان الكثير من الروائيين الجزائريين قد ربطوا في نصوصهم ، بين ما حدث أثناء الثورة ، وما كان يحدث بعد ينيل الاستقلال . كل من وجهة نظرته الأيديولوجية ، ووفق علاقته بالثورة وموقفه منها ومن رجالاتها ، فإن الثابت هو أن الثورة ظلت (هي المرجعية الأيديولوجية والفنية التي ينطلق منها أغلب الروائيين الجزائريين)[15]

وقد ساعد تبني الاتجاه الواقعي من طرف الروائي الجزائري ، في مقاربة الوقائع التاريخية ، وهو ما جعل النص الروائي ، يرتبط بالواقع خارج نصي ، أكثر من الجمالية النصية . وهدف المبدع من تلك الإستراتيجية هو توثيق الأحداث التاريخية للثورة ، بمعنى نقل حقائق ثابتة عن مقاومة هذا الشعب من أجل إقناع المتلقي بما يسرد . (إن الحركة الأدبية في الجزائر ارتبطت بالتحولات السياسية منذ نشأتها ، فلا غرابة أن ترتسم هذه التحولات في سائر الأعمال وأن يتقدم المضمون إلى الواجهة حتى لكأن المضمون في انعكاسه على صفحات العمل الأدبي يعكس نية جعله جسرا للعبور إلى شاطئ الأدبي وخاصة ما يتعلق منه بحرب التحرير أو بالخطاب الاشتراكي .)[16]

ويمكن للذي يطلع على الرواية الجزائرية التي تناولت أحداث الثورة أن يقسمها من ناحية تناول فضاء الأحداث إلى قسمين :

القسم الأول الروايات التي ركزت على فضاء الريف من أجل إظهار دور سكان الريف في الثورة . كرواية اللاز للطاهر وطار . ورواية على جبال الظهرة لمحمد ساري .ورواية هموم الزمن الفلاقي لمحمد مفلاح . ورواية حورية لمحمد مليس .وغيرها من الروايات .

القسم الثاني : الروايات التي ركزت على فضاء المدينة من أجل إظهار دور أهل المدن في الثورة . كرواية طيور في الظهيرة لمرزاق بقطاش . ورواية نار ونور لعبد المالك مرتاض . ورواية جسر للبوح وآخر للحنين لزهور ونيسي .وغيرها من الروايات .

أما من ناحية المواقف الأيديولوجية فيمكن الوقوف على موقفين :

الموقف الأول : وهو موقف مرتبط بالأيديولوجية الوطنية والمتشبث بالعروبة والإسلام وهو موقف قادة الثورة .

والموقف الثاني : وهو الموقف المتشبع بالأفكار الماركسية وهو موقف مضاد للموقف الأول . وأصحاب هذا الموقف كان نقدهم لقادة الثورة واضحا ، فقد رصد أصحاب هذا الموقف كل ما كان يشوب الثورة من اختلافات وتصفيات ، وبثوا ذلك في بعض نصوصهم الروائية .

وكما هو معروف أن ثورة التحرير الجزائرية كان لها تأثيرها العالمي وإن كان (هناك من أعدائها في الداخل والخارج من يريد أن يطمس معالمها ويضعف من أثرها ويجعل منها مجرد معركة تحريرية انتهت بتحقيق الاستقلال في حين يعطى الحق لثورات أخرى أن يحتفل بها ولو مر عليها قرن أو قرنان من الزمان ، كأنما الثورات في العالم مقصورة على فئة معينة أو شعبا خاصا وليست حقا مشاعا لكل المظلومين أو المؤمنين بالتغيير والباحثين عن الحرية والعدل والسلام بصرف النظر عن الجنس والعقيدة والأرض والانتماء)[17] والملاحظ هنا أننا حاولنا التركيز على الأنا الوطني لأنه هو الذي فجر الثورة وعاش لهيبها فهو أدرى من غيره بحقيقتها ظاهرا وباطنا أما الآخر فهو على نوعين الآخر العربي ومن هو متضامن معه ، والآخر العدو ومن هو متضامن معه .وبين هؤلاء تباين واضح في تعاملهم مع الثورة لأن منطلقاتهم الفكرية والأيديولوجية مختلفة ومتباعدة . والذي يهمنا هنا أن نعرف ماذا كتب المبدع الجزائري عن الثورة ؟ وكيف تعامل مع أحداثها ؟

فمن روايات التأسيس نجد [رواية اللاز للطاهر وطار] والتي حاول من خلالها أن ينقل للمتلقي مقاومة أهل الريف لجيش المستعمر الفرنسي ، ونفس الوقت ينقل معارك جيش التحرير ولذلك ،(جاءت " اللاز " كإنجاز فني جريء وضخم ، يطرح بكل واقعية ، وموضوعية ، قضية الثورة الوطنية لا من وجهة التحالفات المنطقية لقوى الثورة التي فرضتها تلك المرحلة)[18] فهي رواية تجسد أحداثها من خلال ما تقوم به شخصياتها .(وقد جاء تصوير اللاز للثورة الجزائرية من الداخل ينم على معايشة الروائي اليومية ووعيه السياسي والاجتماعي لأحداث الثورة الجزائرية وأزماتها ومشكلاتها وخلافاتها التنظيمية .)[19]

ولكن بعض ما جاء في هذه الرواية يثير قلق المتلقي حين تصدمه بتلك الصراعات الهامشية التي حدثت أثناء الثورة والتي لم

يكن دافعها الثورة ، وإنما كان دافعها التعصب الأيديولوجي والذي لا علاقة له بالثورة . ولذلك فهي رواية تطرح جانبا من الصراع الذي كان يحدث بين رفقاء السلاح وقد شخصت الرواية ذلك في أيديولوجيتين متضادتين : أيديولوجية دينية إسلامية ، وأيديولوجية ماركسية شيوعية . وهي بذلك تحاول أن تلفت الانتباه إلى أمر هام في سجل الثورة ، وهو الصراع الأيديولوجي ، ومن جانب ثاني تعمل على إظهار مقاومة سكان الريف للمستعمر ودورهم القوي أثناء الثورة وما كان مسلطا عليهم من قهر وحرمان وظلم .

لعل الحماس الذي كان يهز مشاعر المثقفين الجزائريين في الأيام الأولى للاستقلال هي التي كانت وراء حضور الثورة في الخطاب الروائي عند الطاهر وطار الجزائري وإن كان ذلك الحضور يتفاوت من كاتب إلى آخر .

فالروائي وهو يتناول الثورة يحاول أن يقبض على بعض المشاهد الحية منها وفق وجهة نظره وموقفه من الثورة أي القبض على لحظة تاريخية حية ومتميزة من بين أحداث الثورة .

كل الأعمال الأدبية التي كتبت عن الثورة لا ترقى إلى مستوى الثورة وهذا الرأي لا يعني انتقاصا من تلك الأعمال وإنما هو الحقيقة التي يجب أن تقال .لأن من كتبوا هذه الأعمال لم يعايشوا الثورة فعلا وإنما شعوريا .

فقد رصد الروائي الجزائري بأن هناك أمالا كثيرة لم تتحقق بعد الاستقلال لذلك فتح باب النقد ، لأن ما يحدث قد شوه الثورة في نظره لدى الأجيال التي ولدت بعد الاستقلال . ولذلك حاول بعض الكتاب إظهار بعض تلك التناقضات التي حدثت أثناء الثورة والاختلافات الأيديولوجية التي كانت تعصف بها والتي أدت في بعض الأحيان إلى التصفية الجسدية لبعض رفقاء السلاح وهو ما يعطي صورة مشوهة للثورة . وبقيت مخلفاته إلى ما بعد الاستقلال لا بسبب المحافظة على مكتسبات الثورة ولكن على المصالح الفردية . وهناك البعض من النصوص الروائية من سارت في منحى انتقادي للوضع الذي أصبح سائدا بعد الاستقلال .

فصورة الثورة الجزائرية تنعكس في الخطاب الروائي عند الطاهر وطار من خلال بطولات المجاهدين والفدائيين والمسبلين لتحدث حركة داخل مسارات السرد في النص وتضيف عليه جمالية نصية . والملاحظ أن جل النصوص الروائية التي تناولت الثورة بطريقة أو بأخرى تلتقي في تلك المشاهد الحية للثورة .وهي مشاهد تعبر عن لحظة زمنية ستبقى حاضرة في الذاكرة الجماعية للأمة الجزائرية لأنها تمس جزء من تاريخها المشرق .وقد كان تركيزنا على مشهدين للثورة نرى بأن لهما أهمية كبرى في بلورة صورة الجزائر الثائرة وهما : مشهد المعارك ، ومشهد السجون والتعذيب .

فمن خلال الفعل الثوري للذوات تتجلى الثورة بكل مشاهدها وصورها ونبض أحداثها للمتلقي ، فالروائي ومن خلال عالمه التخييلي الفني يحاول أن يجعل المتلقي يلامس أحداث الثورة عن طريق تلك المشاهد التي يقدمها له والتي تتجلى فيها بطولة الأنا الوطني بصورة تتجاوز في بعض الأحيان الحقيقة إلى الأسطورة .فمشاهد انتصارات المجاهدين في المعارك تثير حماس الفرد الجزائري ، وتعطي صورة مشرقة عن نضاله وصموده في وجه أعتا قوى استعمارية عرفت في القرن الماضي

مشاهد السجون والتعذيب :

ومن المشاهد التي تتجلى من خلالها ثورة التحرير مشاهد التعذيب ، فالمستعمر الفرنسي كان يضن بأنه عن طريق القسوة والقهر والتعذيب سيقهر إرادة الشعب الجزائري ويخضعه لسيطرته ، ولكن كان العكس فكلما زاد المستعمر من بطشه كلما زادت إرادة المقاومة عند الشعب الجزائري ، وقد قدمت الرواية الجزائرية مشاهد حية عن ما كان يتعرض له الشعب الجزائري من تعذيب تجاوز كل وصف ، مثل ما يقف عليه المتلقي في رواية [على جبال الظهرة] من مثل (مشؤوم ذلك اليوم الأول الذي ذقت فيه العذاب ... ربطوني بحبل نيلون إلى الشباك الحديدي ويداي تقطران بالدماء ... كم كانت تؤلمني ... أشعر بها حتى الآن ... بصق على وجهي ذلك العسكري العملاق ... اشعر بها أكثر من كل العذاب الذي ذقته ، كأنني مزبلة ... جاءوا بالملاقط التي يسري فيها التيار الكهربائي ، ملاقط صغيرة ، مسننة من فلاذ لماع ووضعوا ملقطا في شحمة أذني اليمنى وملقطا في ابهام يدي اليسرى ، وجاء التيار الكهربائي كالصاعقة نزلت من السماء في ليلة دامسة ، ممطرة والرعد والبرق يدويان . وثبت دفعة واحدة وصرخت بكل جوارحي ، لم أعرف من الوهلة الأولى ماذا أصابني ... وجدت حسمي يرتعش وانفلت مني زعيق مريع . أحسست بثقل رأسي . أوقفوا التيار ، وجاء صوت أحدهم ، مظلي بلباسه الكئيب .(تكلم أيها الحيوان ...) دوي أجش ، أيقظني من الغفاء الذي ملكني .أتذكر جيدا تلك النظرة التي حدقته بها نظرة قاتلة مملوءة بالانتقام والاستياء والثورة .)[22] فالسارد في المشهد السابق يضع المتلقي أمام لحظة من لحظات التعذيب ليظهر ما كان يتعرض له الفرد الجزائري على يد أفراد الجيش الفرنسي .وفي نفس الوقت يظهر شجاعة وصمود ذلك الفرد أمام كل أنواع التعذيب والقهر والإذلال فهو يقدم صورة مشرفة للأنا الوطني قد يحتفظ بها التاريخ عبر الأزمان وهي صورة تشرف الإنسانية المناهضة للاستعمار وكل أشكال التعذيب . فالمشهد السابق من مشاهد التعذيب هو مرجع لمشاهد عدة مورس فيها التعذيب الهمجي بكل أشكاله على الثوار ، مجاهدين ومسبلين وفدائيين ومن عامة الشعب . (لم يكن المستعمر يعمل على تزييف الوعي الشعبي بانتماءاته الفكرية والتاريخية والجغرافية فقط ، بل سعى إلى تصفية الإنسان باعتباره بنية جسدية يمكن أن تكون أداة نضال ومقاومة .)[23] فالجلاد يحاول بكل أساليبه في التعذيب أن يشل القدرة الفكرية والجسدية التي تمكن الفرد الجزائري من مقاومة و رفض الاستعمار.

والسارد عندما يتحدث عن أشكال التعذيب الهمجي التي تعرض لها الأنا الوطني على يد جلاديه من الجيش الفرنسي ، هو في حقيقة الأمر يتحدث عن حقائق تاريخية موثقة وليست من افتراضات خياله .فهو ينقل للمتلقي أنواعا من مشاهد التعذيب ، ليظهر له كيف كانت تنتهك حرمة جسد الإنسان من طرف الجلادين بدون رحمة أو شفقة . (لم أكن أرى أحدا ، أحيانا حينما أساق إلى الزنزانة ، التقي بسجين ، جاء ليقوم بدوري في تلقي العذاب ، لكنني دائما عند العودة ، أكون في حالة لا تسمح لي بالتعرف على وجهه ، اشعر بنظراته اليائسة تحدقني رثاء لحالي ولحاله معا .)[24] إذن فكلما زاد الجلاد في

درجة التعذيب ، كلما قويت إرادة الفرد الجزائري في مواجهة ذلك

(واستمروا على استنطاقه بذلك الأسلوب الجهنمي الوحشي . كل يوم كان يلاقي على يد هؤلاء الجلادين مر العذاب .كل يوم كانوا يبتكرون نوعا من العذاب . مرة يذيقونه السوط ، وطورا يجربون عليه (عملية الزجاجة) . ومرة أخرى يضربون عضوه التناسلي بالتيار الكهربائي ، زيادة على الجوع والعطش ، حيث أنهم كانوا لا يمكنونه إلا من طعام قليل يمسك الرمق فقط)[25]

ومن الروايات التي اهتمت بنقل مشاهد التعذيب رواية نتوءات البحر لعزي بوخالفة والتي تناول في مضمونها مشاهد من ثورة التحرير محاولة رصد ما كان يتعرض له السجناء أيام الثورة من تعذيب وحشي يتعدى الوصف ، وفي المقابل يكشف عن صمود الفرد الجزائري أمام كل أصناف التعذيب ، وهي رواية يمكن تصنيفها ضمن ما يسمى بأدب السجون .فهي من بدايتها ، وإلى نهايتها تدور حول ما كان يدور في سجون الاستعمار الفرنسي من أصناف التعذيب ، و انتهاك لإنسانية الإنسان أيام ثورة التحرير . والسارد في هذه الرواية يظهر مدى بشاعة السجن كمكان تنعدم فيه روح الإنسانية ، ويفقد فيه الإنسان حريته وكرامته وإنسانيته ، ويصبح كتلة لحم في يد السجان يمارس عليها ساديته وهو يتلذذ بألمها ونزيف جراحها .فـ(في السجن كل شيء يعرض أمام أعين الجلاد وسياطه .فالجسد هو الممر إلى نفسية الضحية وهو الموضوع الذي يمارس عليها الجلاد ساديته)[26] ومن هنا فالعمل الروائي كعمل تخييلي يمكنه أن يرصد بعض الحقائق التي عايشها إنسان في حياته ،أو عرفها شعب من الشعوب .

إذن فالسارد في هذه الرواية يحاول أن يقدم بعض الحقائق المؤلمة ليعطي صورة واضحة عن بشاعة المستعمر الفرنسي ، من خلال الكشف عن أصناف التعذيب التي كان يتعرض لها الفرد الجزائري في تلك السجون ، التي أقامها المستعمر خصيصا لقهر إرادة الشعب الثائر ، وسد الطريق أمام تحقيق حريته .

فالنص يقدم مشاهد مرعبة عن ما كان يتعرض له الفرد من تعذيب وإهانة لإنسانيته في سجون ومعتقلات المستعمر أيام ثورة التحرير ، كما يكشف في نفس الوقت عن تلك الصورة المشرقة لصمود الفرد الجزائري وصبره أمام كل أشكال التعذيب والإذلال والقهر ، ومحاولة محو شخصيته الإنسانية . (الجرح يمتد .. يتوسع في أعماق .. يمتد امتداد البصر . شجرة شوكية متوحشة .. غريبة ، تمتد فروعها الشائكة في جرحك وتمتص دمك بلا شفقة .. تنمو بكبرياء . تنمو كلما ازداد ألمك)[27] فالنص يكشف عن ألم الذات الوطنية ومعاناتها وصبرها وتحملها وإصرارها على الصمود والتحدي ، حتى تتمكن من قهر الألم وهزيمة الجلاد . وفي المقابل يظهر مدى قسوة المستعمر وحقده وتجبره ، ووحشية جنوده ، فهم لا يختلفون عن الحيوانات المفترسة المتعطشة لدم الآخرين ولحومهم . وعلى كل فإنه و نظرا لأن النص الروائي الجزائري ولد متأخرا عن أحداث الثورة ، ونظرا لأن جل كتاب الرواية الجزائرية هم من جيل ما بعد الاستقلال ، فإن تناوله للثورة الجزائرية .

الهوامش :

1 – عبد الله الركيبي الشعر في زمن الحرية ديوان المطبوعات الجامعية ص29.

2 - أحمد محمد عطية البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة ص 27 وزارة الثقافة السورية 1977 .

3 - مصطفى بيطام الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي ديوان المطبوعات الجامعية ص 11 الجزائر1998 .

4 – وسيني الأعرج اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ص94 .

5 - بشير بويجرة الزمان في الرواية الجزائرية الحديثة مخطوط دكتوراه دولة جامعة وهران ص 328 .

6 - محمود أمين العالم وآخرون الرواية العربية بين الواقع والأيديولوجية دار الحوار ط1/1986 سورية ص64 .

7 - طه وادي الرواية والسياسة دار النشر للجامعات المصرية ط1/96 ص 9 .

8 - رضوان عاشور الروائي والتاريخ مجلة الطريق عدد3/1981 ص 134 .

9 - سعيد بنكراد السرد الروائي وتجربة المعنى المركز الثقافي العربي ط1/2008 ص218 .

10 - سعيد علوش الرواية والأيديولوجية دار الكلمة للنشر ط2/1983 بيروت ص 25 .

11 - محمد الميلي وضع العربية خلال العهد الاستعماري مجلة اللغة العربية عدد ممتاز2005 ص48 .

12 - محمد نور أفاية الهوية والاختلاف إفريقيا الشرق المغرب ص8 .

13 - لحمداني حميد الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي دار الثقافة ط1/1985 ص 532 .

14 - مخلوف عامر توظيف التراث في الرواية الجزائرية (بحث في الرواية المكتوبة بالعربية) منشورات دار الأديب ط1 وهران. ص26.

15 - علال سنقوقة المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية منشورات الاختلاف ط1/2000ص 48 .

16 – مخلوف عامر توظيف التراث في الرواية الجزائرية ص27.

17 - عبد الله الركيبي الشعر في زمن الحرية ديوان المطبوعات الجامعية ص11/10 .

18 – وسيني الأعرج اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ص90 .

19 - البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة ص 254.

20 - محمد ساري رواية على جبال الظهرة المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ص 7 .

21 - رواية على جبال الظهرة ص25 .

22 - رواية على جبال الظهرة ص37/36 .

23 - علال سنقوقة المتخيل والسلطة ص 100.

24 - رواية على جبال الظهرة ص38 .

25 - علال عثمان رواية الإنتفاضة الكبرى المؤسسة الوطنية للكتاب 1985 الجزائر ص86/85.

26 - سعيد بنكراد السرد الروائي وتجربة المعنى المركز الثقافي العربي ط1/2008 الدار البيضاء ص 220

27 –عزي بوخالفة نتوءات البحر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ص 5 .

28 - اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ص 95.